سقوط خط ماريث

الحصين والزحف إلى الشمال

الفصل العشرون

obeikandl.com

obeikandl.com

عقب توقف الهجوم الألماني الذي شنَّه الفيلد مارشال روميل على الفيلق الثاني الأمريكي في قطاع (قفصة) غرب تونس أفادت أنباء الاستطلاع أن القيادة الألمانية أخذت في تحويل قواتها المدرعة من منطقة قفصة إلى خط ماريث (Mareth)، وأنه أمكن لها حشد ثلاث فرق بانزر (مدرعة)، هي: الفرقتان 15 و21 البانزر (من قوات روميل السابقة في الفيلق الأفريقي) والفرقة 10البانزر التي أُرسلَت أخيراً إلى تونس مع بعض الوحدات الألمانية الأخرى للدفاع عنها ضد قوات الحلفاء، مما جعل مونتجومري يدرك أن جبهة الجيش الثامن المواجهة لخط ماريث ستتعرض خلال بضعة أيام لهجوم ألماني رئيسي، وكان روميل يستهدف من ورائه إجبار قوات الجيش الثامن على التخلي عن منطقة (ابن جاردين ـ مدينين)، وتعطيل عمليات هذا الجيش بصورة مؤثرة لإتاحة الفرصة للقيادة الألمانية لشن عملياتها الحربية ضد قطاعات أخرى من جبهة الحلفاء في شمال تونس.

معركة مدينين

أمضى الجنرال مونتجومري الأيام الأولى من شهر مارس 1943 في حشد قواته، وتجهيز دفاعاته استعداداً للمعركة الكبرى المنتظرة، وكان تقديره للموقف أنه بعد استكمال استعداداته سيصبح قادراً على مواجهة الهجوم الألماني الذي سيوجَّه ضد قوات الجيش الثامن في منطقة (مدينين) بمقدرة وكفاءة، فقد تم له حشد فرقتين من المشاة (الفرقة 51 والفرقة 2 نيوزيلندية) اللتين أحضرهما من طرابلس، والفرقة 7 المدرعة التي كانت ضمن قواته في تونس من قبل.

وقد بدأ الهجوم الألماني الرئيسي في يوم 6 مارس، واتضح أن المجهود الرئيسي موجَّه ضد مواقع الفرقة 7 المدرعة، وقد شنَّ الألمان أربع هجمات رئيسية على مواقع

قوات الجيش الثامن، ولكنها فشلت جميعًا في اختراق الدفاعات البريطانية، وبلغت خسائر الألمان 52 دبابة، بالإضافة إلى عدد كبير من القتلى والجرحى والأسرى، بينما كانت خسائر البريطانيين 130 من القتلى والمصابين، وعدد قليل من الدبابات، وانتهت المعركة بارتداد قوات الهجوم الألماني في المساء إلى خط ماريث.

وكانت معركة مدينين معركة دفاعية مثالية جرت على غرار معركة علم حلفا في منطقة العلمين في سبتمبر 1942، والتي سبقت معركة العلمين الحاسمة بعدة أسابيع، فقد كانت قوات الجيش الثامن في مدينين على استعداد تام لمقابلة الهجوم الألماني، وتم تدريبها على الخطة الدفاعية لمواجهته وهزيمته، ولذا كانت النتيجة هي فشل روميل في هجومه الرئيسي وارتداد قواته إلى مواقعها الدفاعية في خط ماريث.

وقد علق الجنرال دي جوينجند رئيس أركان الجيش الثامن على معركة مدينين، فقال: "لقد تم توزيع المدافع المضادة للدبابات لتدمير الدبابات الألمانية، وليس لحماية المشاة، كما كان لنيران المدفعية المركَّزة أثر كبير في تشتيت الهجمات التي قام بها العدو"، وقد اعترف الأسرى الألمان عند استجوابهم بعد انتهاء القتال أن قائدهم روميل كان يتجوَّل في أثناء المعركة بين الوحدات لاستثارة حماسة جنوده، وإفهامهم بمدى أهمية هذه المعركة، ولكن كان واضحًا لهم إنه غدا رجلاً مريضًا؛ إذ كان يحيط عنقه بالأربطة الطبية، بينما كانت ملامح وجهه تنم عما يعانيه من هموم وآلام.

كذلك اعترف أحد كبار الضباط الأسرى بعد المعركة للجنرال البريطاني هارولد ألكسندر نائب القائد العام لقوات الحلفاء في شمال أفريقيا بأن روميل قال لمجموعة من رجاله الذين كانوا يقفون حوله في أثناء القتال بأن الألمان إذا لم يحرزوا النصر في هذه المعركة فإن وجودهم في شمال أفريقيا مهدد بالزوال.

خطة الهجوم على خط ماريث

أنشأ الفرنسيون خط ماريث عام 1936 للدفاع عن تونس ضد أي هجوم إيطالي يَشَنُّ ضدها من الأراضي الليبية عندما كانت وقتئذ محتلة من الإيطاليين، وكان زعيمهم موسوليني وقتئذ لا يكف عن إظهار أطماعه في ضم تونس إلى إمبراطوريته التي كان يحلم بتكوينها، وكانت الدفاعات الرئيسية للخط الحصين تمتد من البحر المتوسط قرب بلدة (ماريث) شرقًا حتى تلال (مطمطة) المرتفعة في الجنوب الغربي حتى تنتهي عند (شط الجريد)، وهو عبارة عن منطقة متسعة من المستنقعات والبحيرات المالحة، ولذا كان يعد خط ماريث الذي يستند على تلال مطمطة ومنطقة المستنقعات مانعًا قويًّا يُصعب اختراقه.

وقد أنشأ الفرنسيون في هذا الخط سلسلة من الدفاعات القوية، والدشم الحصينة، ومواقع المدفعية والمواقع المضادة للدبابات، وراعوا أن تكون في عمق كبير، وخلف موانع قوية من حقول الألغام، ونطاقات الأسلاك الشائكة، ولذا كان الهجوم بالمواجهة على خط ماريث يعد مغامرة خطيرة لابد أن يتكبَّد المهاجم خلالها خسائر فادحة في الأرواح والأسلحة والمعدات، كما كانت عملية الالتفاف حوله لتطويقه غاية في الصعوبة؛ إذ إن المهاجم في هذه الحالة سوف يضطر للتقدم مسافة لا تقل عن 250كم في أرض جدباء شديدة الوعورة.

ووفقًا للخطة التي وضعتها القيادة الألمانية تم احتلال الخط الدفاعي الحصين بأربع فرق مشاة إيطالية وفرقتين ألمانيتين هما: الفرقة 164 مشاة، والفرقة 90 الخفيفة، ووضعت الفرقة 15 البانزر الألمانية شمال بلدة ماريث كاحتياطي تعبوي.

وكانت خطة الجنرال مونتجومري للهجوم تستهدف الوصول إلى مدينة (صفاقس) التي تقع على ساحل البحر المتوسط (شمال مدينة قابس وعلى بعد نحو 150كم منها)، وتتميز بوجود الأرض المفتوحة حولها، والتي تسمح باستغلال التفوق الذي تحوزه

القوات البريطانية لتدمير قوات المحور بالاشتراك مع قوات الحلفاء المتمركزة في شمال (قفصة)، وقد تضمَّنت الخطة ما يلي:

- § الفيلق 30 يقوم بهجوم بالمواجهة على القوات الإيطالية في خط ماريث.
- § الفرقة 2 نيوزيلندية مدعمة باللواء 8 المدرع، وقوة لكلير الفرنسية تقوم بحركة التفاف من الجنوب إلى الشمال في اتجاه مدينة (قابس) لتطويق الخط، وتهديد مؤخرة قوات المحور التي عهد إليها مسئولية الدفاع عنه.
- § الفيلق 10 يبقى في الاحتياطي استعداداً للتقدم إلى قابس بعد نجاح الهجوم.

وفي سبيل ضمان نجاح الخطة الهجومية للجيش الثامن طلب مونتجومري من القيادة العامة للحلفاء الفيلق 2 الأمريكي بالقيام بهجوم تثبيتي في قطاع قفصة لمنع القيادة الألمانية من سحب قواتها الاحتياطية في هذا القطاع؛ لتعزيز دفاعات خط ماريث.

وقد وافق الجنرال البريطاني هارولد ألكسندر على خطة الهجوم، ولكنه قرر أن يستمر هجوم الفيلق الثاني الأمريكي حتى مدينة صفاقس على البحر المتوسط؛ لقطع خط الرجعة على جميع القوات الألمانية.

كما قرر الجنرال ألكسندر أن تُدَعَّم العمليات البرية بهجمات جوية من أسراب الطائرات التابعة للقيادة الجوية للحلفاء التي يرأسها مارشال الجو البريطاني تيدر.

وقد سبق عملية الهجوم الرئيسي قيام الفيلق 30 بعدة عمليات هجومية محلية على خط ماريث بهدف تدمير القوات الأمامية الساترة للخط، ومحاولة تضليل القيادة الألمانية عن اتجاه الهجوم الرئيسي، كما اشتد نشاط الدوريات البريطانية قبيل الهجوم مباشرة لستر عملية حشد تشكيلات الفيلق 30 في المناطق الأمامية استعداداً للهجوم، وكانت هذه التشكيلات تتضمن الفرقتين 50 و51 مشاة واللواء 22 المدرع.

وفي يوم 17 مارس شنَّ الفيلق 2 الأمريكي هجومه على المواقع الألمانية في قطاع

قفصة بهدف الوصول إلى صفاقس، ولكن الهجوم توقَّف في منتصف المسافة بين قفصة والبحر المتوسط عند بلدة (المكناسي) توقُّفًا تامًا، بسبب عنف المقاومة الألمانية، وبرغم ذلك حقق الهجوم أحد أهدافه، وهو إجبار القيادة الألمانية على الاحتفاظ بالفرقة 10 البانزر في هذا القطاع، وعدم التفكير في دفعها في اتجاه الجنوب لمواجهة الهجوم الرئيسي للجيش الثامن على خط ماريث.

معركة خط ماريث

في يوم 20 مارس بدأ تقدُّم مجموعة التطويق التي كانت تتشكَّل من الفرقة 2 نيوزيلندية، واللواء 8 المدرع، وقوة لكلير الفرنسية من الجنوب إلى الشمال، وفي مساء اليوم نفسه بدأت الفرقة 50 من الفيلق 30 المكلَّف بالهجوم بالمواجهة على خط ماريث هجومها تحت ستر غلالة كثيفة من نيران المدفعية، ونجحت في إنشاء رأس كوبري ضيق داخل الدفاعات الألمانية، وخلال ليلة 21/ 22 مارس قامت الفرقة بتوسيع رأس الكوبري وزيادة عمقه، ولكن موقفها لم يلبث أن تحرَّج بعد أن اتضح أن القيادة الألمانية حشدت مجموعة قوية من قواتها للقيام بهجوم مضاد عليها؛ كانت تضم الفرقة 15 البانزر ولواء من الفرقة 90 الخفيفة ولواء من جنود المظلات (المشاة)، وفي ليلة 22/ 23 مارس قامت المجموعة الألمانية بهجوم مضاد قوي انتهى بانسحاب الفرقة 50، وقوات دعمها من رأس الكوبري الذي أنشأته.

وفي يوم 23 مارس قرر مونتجومري تعديل خطته بتحويل محور الهجوم الرئيسي إلى مجموعة التطويق التي تشمل الفرقة 2 نيوزيلندية، والقوات المدعمة لها لتتقدم على وجه السرعة إلى الخط (الحامة ـ قابس)، وقام بتدعيمها بالفرقة 1 مدرعة (من الفيلق 10 الاحتياطي التعبوي)، وأمر مونتجومري الفرقة 4 الهندية بالقيام بحركة تطويق قصيرة لخط ماريث على محور (حلوف ـ مطمطة)؛ لإيجاد طريق عرضي بين مجموعة الهجوم بالمواجهة ومجموعة التطويق، وقد استمرت الفرقة 1 مدرعة في التحرك بسرعة حتى

تمكَّن يوم 26 مارس من الانضمام إلى مجموعة التطويق الأساسية (الفرقة نيوزيلندية وقوات دعمها).

وقد تطلَّب تعديل الخطة الأصلية إعداد خطة هجوم عاجلة لمجموعة التطويق لاختراق (ممر طباقة) الذي يقع جنوب غرب (قابس)، وعلى الطريق الرئيسي المؤدي إليها، وهو مضيق لا يزيد اتساعه عن خمسة كيلومترات، فقد أفادت أنباء الاستطلاع أن القيادة الألمانية حشدت للدفاع عن هذا الممر قوة كبيرة من قوات المحور كانت تتشكَّل من الفرقتين الألمانيتين 164 مشاة والفرقة 21 البانزر، وعدة كتائب مشاة إيطالية، وكانت كتائب المشاة تتحكم بنيرانها على الممر عن طريق احتلالها للتلال المشرفة على جانبيه، بينما تسترها من الأمام موانع قوية من الألغام، وفضلاً عن ذلك تم إعداد الفرقة 21 البانزر للقيام بهجوم مضاد على أية قوة بريطانية تحاول اختراق هذا الممر الحيوي.

وكانت خطة الهجوم التي وضعها مونتجومري على ممر طباقة تتضمن ما يلي:

1. مجموعة التطويق (الفرقة 2 نيوزيلندية، ووحدات دعمها) تقوم بالهجوم على الممر على مواجهة ضيقة للغاية بهدف فتح ثغرة لمرور الفرقة 1 مدرعة (من الفيلق 10).
2. الفرقة 1 مدرعة بمجرد فتح الثغرة تتقدم بأقصى سرعة، وبأقصى عمق في الإمكان بهدف عبور الممر بأكمله، والوصول إلى الأرض المفتوحة شرقه قبيل الفجر.
3. يبدأ الهجوم الساعة 1600 (الرابعة عصراً) على أن تسبقه بساعة واحدة فقط تحضيرات قوية من نيران المدفعية، وهجمات جوية عنيفة على المواقع الدفاعية بالممر.
4. الفيلق 30 يقوم بهجمات خداعية في القطاع الساحلي من خط ماريث؛ لجذب انتباه المدافعين إلى هذا القطاع.

5. الفرقة 7 المدرعة (من الفيلق 10) تتحرك خلف المواقع الأمامية؛ لخداع القيادة الألمانية عن اتجاه الهجوم الرئيسي.

هذا وقد تم اختراق ممر طباقة بالطريقة التالية:

§ بدأت الهجمات الجوية العنيفة على الممر خلال ليلة 25/ 26 مارس، واستمرت حتى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم 26 مارس عندما بدأت تحضيرات المدفعية التي سبقت عملية الهجوم بساعة واحدة، وفي الوقت نفسه قامت الفرقة 2 نيوزيلندية من مجموعة التطويق بالتحرك إلى خط التشكيل استعداداً لبدء الهجوم، وتم ذلك كله في أثناء عاصفة رملية شديدة.

§ في الساعة الرابع عصراً بدأ هجوم الفرقة 2 نيوزيلندية وفقًا للخطة الموضوعة، وعندما حلَّ المساء كانت الفرقة قد استولت على جميع أهدافها، وفتحت الطريق للفرقة 1 مدرعة التي اندفعت بسرعة مخترقة الممر للوصول إلى الأرض المفتوحة، ولكنها لم تستطع مواصلة التقدم إلى (قابس) لقطع خط الرجعة على قوات المحور؛ بسبب هبوب عاصفة رملية شديدة.

§ في صباح يوم 27 مارس أخذت الفرقة 2 نيوزيلندية في تطهير مواقع قوات المحور على جانبي الممر، بينما اصطدمت الفرقة 1 مدرعة عقب خروجها من الممر بستارة من المدافع المضادة للدبابات من عيار 88مم عند بلدة (الحامة) التي تقع غرب مدينة قابس بنحو 30كم.

§ كانت القيادة الألمانية قد حاولت تعزيز قواتها بالممر بإرسال الفرقة 15 البانزر، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى الممر في الوقت المناسب.

§ عندما أدركت القيادة الألمانية حقيقة الوضع المتدهور لقواتها في الممر أصدرت أمرها بانسحاب هذه القوات، والتخلي عن الممر.

§ خلال ليلة 27/ 28 مارس وفي إثر استيلاء قوات الجيش الثامن على ممر طباقة

أصدرت القيادة الألمانية أمرها إلى قوات المحور في خط ماريث بالانسحاب العام من جميع المواقع.

§ في يوم 29 مارس تم استيلاء الفرقة 2 نيوزيلندية على قابس، بينما دخلت الفرقة 1 مدرعة (الحامة).

وقد أمر مونتجومري الفيلق 30 بمطاردة قوات المحور في أثناء انسحابها من خط ماريث، ولكن قواته لم تتمكَّن من اللحاق بها؛ نظراً لحقول الألغام التي كانت تمتد بكثافة أمام مواقعها الدفاعية.

هذا وتعد معركة خط ماريث من أفضل الأمثلة لتطبيق مبدأ المحافظة على المبادأة، فقد أمكن لمونتجومري تحقيق هذا المبدأ الحيوي بتحويل ثقل الهجوم بسرعة إلى النقطة الضعيفة في جبهة العدو، وكانت هي وقتئذ الدفاعات الموجودة بين الحامة وقابس، ولم يكن ذلك متيسِّراً إلا بفضل وجود القوة الاحتياطية المخصصة لهذا الواجب، وهي الفيلق 10 (الاحتياطي التعبوي).

وقد جرى لأول مرة في هذه المعركة تطوُّراً مهمًّا في تاريخ الحرب في شمال أفريقيا؛ إذ قامت القوات الجوية التابعة للحلفاء بواجب المعاونة المباشرة للقوات الأرضية في أثناء قيامها بالهجوم، وبذا تم تمهيد الطريق لتغيير جوهري في استخدام المقاتلات.

وكانت القيادة الألمانية قد أعدَّت خط وادي العكاريت ليكون خطًا دفاعيًّا تاليًا لخط ماريث، وهو الأمر الذي جرى بالفعل عقب استيلاء الجيش الثامن على ممر طباقة، مما أجبر هذه القيادة على إصدار الأمر بالانسحاب العام من خط ماريث، هذا ويقع وادي العكاريت إلى الشمال من منطقة قابس ـ الحامة في الثغرة التي تقع ما بين البحر المتوسط وشط الجريد، والتي تمتد مسافة تبلغ حوالي 25كم، وتوجد على الجانب الشمالي للوادي سلسلة من التلال المرتفعة التي تسيطر تمامًا على الأرض المفتوحة في الوادي، ولذا كان خط وادي العكاريت يعد موقعًا دفاعيًّا طبيعيًّا، وقد أمرت القيادة الألمانية

بوضع الفرق الإيطالية المشاة المنسحبة من خط ماريث في المواقع الدفاعية بوادي العكاريت، بينما احتفظت بالفرقتين الألمانيتين 15 البانزر و90 الخفيفة في الخلف كاحتياطي تعبوي.

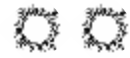

obeikandl.com